

الاكتساب اللغوي، النظريات والمراحل Language Acquisition: Theories and Stages

صالح حوحو*

جامعة محمد خيضر بسكرة، (الجزائر)

s.houhou@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2024 / 03 / 20 تاريخ القبول للنشر: 2024 / 12 / 03 تاريخ النشر: 2026 / 01 / 20



ملخص

عالجنا في هذا المقال موضوعاً مهماً، وهو موضوع اكتساب اللغة وتعلّمها لدى الإنسان عموماً، والطفل بشكل خاص. بدأنا بالحديث عن مفهوم الاكتساب في اللغة ثم في الاصطلاح، ثم تحدّثنا عن طبيعته وصفته، والعوامل المساعدة عليه، ثم انتقلنا للحديث عن أهم النظريات التي تناولته؛ كالنظرية السلوكية، والنظرية الفطرية، والنظرية التفاعلية، دون أن ننسى الحديث عن الكفاءة التواصلية ومهارات الاكتساب اللغوي، كمهارة السماع ومهارة التحدّث، ومهارة القراءة، ومهارة الكتابة، وأنهيّا المقال بالحديث عن أهم مراحل الاكتساب اللغوي لدى الطفل منذ ولادته إلى سنّ المراهقة.

- الكلمات المفتاحية: الاكتساب، التعلّم، اللغة، النظرية السلوكية، النظرية الفطرية.

* المؤلف المرسل.

Abstract:

In this article, we address a crucial topic: human language acquisition and learning in general, with a particular focus on children. We begin by examining the concept of language acquisition, both in its broad sense and as a technical term. We then consider its nature, key characteristics, and the factors that facilitate it.

Next, we explore major theoretical perspectives, including behaviourist, nativist, and interactionist approaches. We also discuss communicative competence and the core language skills involved in acquisition and learning: listening, speaking, reading, and writing. The article concludes by outlining the principal stages of language acquisition in children, from birth through adolescence.

keywords: acquisition; language learning; behaviourist theory; nativist theory; interactionist theory.

مقدمة

لا خلاف في أن اكتساب وتعلّم اللّغة مهما كانت هذه اللّغة، قضية بالغة الأهمية على كلّ المستويات، وذلك لأنّ البحث في هذا المجال يفضي إلى ضرورة الاطلاع على العديد من العلوم الأخرى، خاصّة تلك التي تتمتع بالطّابع الإنساني، ولعلّ "أوّلها اللّسانيات بصفتها علوما متشعبة تتخذ من اللّغة موضوعا للدراسة من أجل وصف بنيتها وصفا علميا أو وصف علاقتها بغيرها، سواء كان هذا الغير ذهنيا بشريا أو قيما حضارية، أو كونا طبيعيا، وثانيها التّربويات باعتبارها علوما تأتلف في جعل أساليب التعليم والتّكوين والتنشئة موضوعا للبحث، وثالثها التّقنيات التّربوية بوصفها وسائل تعليمية تساعد على تحقيق الأهداف المدرسية"¹، وبالإضافة إلى كلّ ما ذكرناه ننّه إلى وجوب الاطلاع على بعض

العلوم الأخرى المصاحبة لعملية الاكتساب اللغوي؛ كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التربية، وعلم الأحياء، وعلم الطبيعة وغيرها من العلوم التي اهتمت بها اللسانيات التطبيقية الحديثة، باعتبار الاكتساب اللغوي أهم مجالاتها.

وواقع الحال أنّ قضية اكتساب اللغة لدى الطفل قضية شائكة جدّاً، باعتبار أنّ الطفولة هي أولى المراحل التي يمرّ بها الإنسان في نموّه البيولوجي والنّفسي واللّغوي، إذ من المعلوم أنّ الطفل يولد صفحة بيضاء بذاكرة خالية ومشاعر خامدة، لا يحسن التكلّم ولا الكلام رغم توفّره على جهاز نطق يمكّنه من ذلك، ولذا كان من الضروري أن "يلجأ الباحثون إلى دراسة تطور مهارة الكلام عند الطفل منذ مولده"2، فأول ما يبدأ به الطفل في رحلته نحو التكلّم، أو تعلّم الكلام هو السّماع أي أن يكون مستعداً لتلقّف كلّ ما يسمعه من الذين يحيطون به "العائلة والمقرّبين"، وهكذا شيئاً فشيئاً وحسب الظروف المساعدة، يبدأ الطفل في اكتساب بعض الكلمات، ثمّ الجمل، إلى أن يصير قادراً على إنتاج اللّغة، التي يعبرُ بها عن بعض حاجياته فاللّغة: "هي كآية عملية نمو أخرى يمرُّ بها الطفل تتطلّب العمر المناسب والتّحفيز الصّحيح"3 وفي هذا المقام يؤكد العلماء أنّ اكتساب اللّغة عملية ذهنية معقّدة جدّاً، وهي لا شعورية وتتم بشكل سريع، ولنعم تشومسكي نظرية مهمة جداً في هذا المجال، وقد أسّسها النّظرية الفطرية مفادها أنّ للإنسان "وحدة اكتساب اللغة في العقل البشري، وهي وحدة افتراضية تقوم بتشفير القواعد العالمية للغة في عقل الطفل، لتساعده على اكتساب اللّغة، يشترط في ذلك أي لتصير عملية الاكتساب سهلة إذ "يجب أن يكون الطفل قادراً جسمانياً على إرسال الإشارات الصوتية واستقبالها، أي يتمتع بجهاز سمعي وجهاز نطق صحيحين... ويجب أيضاً أن تُتاح له فرصة التفاعل مع مستخدمين آخرين للغة، ليمدّوه بأمثلة أو مُدخلات لغوية"4

ولقد استرعت هذه النظرية، أي نظرية تشومسكي اهتمام العديد من الباحثين والعلماء في هذا المجال، فأخذوا على عاتقهم مهمة شرحها ونشرها في كل أنحاء العالم، وسنعرض لهذه المسألة بعد حين، وإلى جانب هذه النظرية ظهرت نظريات أخرى عكفت على معالجة مسألة الاكتساب اللغوي، وسنحاول في هذا المقام التطرق لبعضها، شرحاً ونقداً، حسب الإمكان وقبل الخوض في ذلك سنهتم بتعريف الاكتساب اللغوي على ما جاء في دراسات بعض المهتمين.

معلوم أن الاكتساب كلمة نعني بها عملية الحصول أو تحصيل الشيء، وفي مجالنا هذا نعني بها عملية تعلّم اللغة، وهو مفهوم يقترب جداً من المفهوم اللغوي المتضمن لمعنى طلب الشيء⁵، فإكتساب اللغة عملية فطرية ذهنية غير شعورية وتلقائية يقوم بها الطفل استجابة للتعبير عن حاجياته، فالطفل يتعلّم اللغة بشكل مباشر نتيجة تواصله مع محيطه دون تخطيط أو استعداد مسبق، ودون تلقي دروس في كيفية تعلّم اللغة أو النطق بها، وقد عرّفه بعضهم بالقول: "زيادة أفكار فرد أو معلوماته، أو تعلّمه أنماطاً جديدة للاستجابة، أو تغيير أنماط استجابته القديمة"⁶، ويؤكد الباحثون من جهة أخرى على فطرية وتلقائية الاكتساب، يقول علاء الجبالي: "الاكتساب ما هو إلاّ عملية فطرية عفوية يقوم بها الطفل دون قصد أو اختيار، وتكون في سياق غير رسمي باكتساب اللغة وبممارستها"⁷

وهو بهذا يؤكد على فطرية الاكتساب وتلقائيته، وأمّا الأستاذ نايف خرما، فيقول: "إنّ القدرة الكامنة عند الطفل، والتي تمكّنه من اكتساب اللغة قوية لدرجة أنّها تتطور في وجه أعنى الصعوبات"⁸، وبالإضافة إلى أنّ اكتساب اللغة عملية فطرية تلقائية، فهي أيضاً عملية ذهنية جدّ سريعة، حيث تنمو لدى الطفل بسرعة شديدة لا يمكن توقيفها بحال، وعلى هذا فإنّ أي طفل "أينما وُجد، في أي جزء من العالم، ومهما كان جنسه أو بيئته، أو

وضعه الاجتماعي أو الاقتصادي قادر على تعلّم أية لغة من لغات البشر قدّر له أن يعيش بين أبنائها"9، فتعلّم اللّغة يكون بهذا نتيجة لاستعدادات فطرية لدى أيّ طفل، بشرط أن تتوفر شروط الاكتساب اللّغوي من حاسة سمع وحاسة نطق، إذ بدونها تصعب أو تتعثر عملية الاكتساب بدرجات متفاوتة ونحبّ أن نشير هنا إلى أنّ عملية الاكتساب هذه تحوّلت إلى نظرية قائمة بذاتها، ثمّ تشعبت إلى نظريات عديدة، حاول الكثيرون من الباحثين الخوض فيها، ونجم عن ذلك نظريات اكتساب اللّغة منها النّظرية السلوكية، النّظرية الفطرية، وغيرها من النّظريات التي سنحاول ها هنا بسط القول فيها.

أولاً: النّظرية السلوكية:

تُعنى النّظرية السلوكية بظواهر الأشياء التي يمكن قياسها وإخضاعها للتجربة العلمية العملية ويعدّ J.B. Watson مؤسس المذهب السلوكي وB.F. Skinner وغيرهما من أنصار هذا المذهب، حيث يذهب هؤلاء إلى أنّ نشاطات الإنسان وقدراته التي تتميز بها عن المخلوقات الأخرى يمكن وصفها بأنّها ذهنية أو عقلية، من خلال تفسير سلوكيات الكائنات الحيّة، ابتداءً من الأميّا وانتهاءً بالإنسان في ضوء الاستجابة العضوية للمثير الذي تقدّمه البيئة التي يعيش فيها الكائن الحي.

من هنا يمكن للإنسان التعلّم نتيجة للاستجابة العضوية، عن طريق القوانين الطبيعية والكيميائية، وبالتالي فاللّغة بهذا تُعدّ عادة مكتسبة غيرها من العادات التي يكتسبها الإنسان وهي هذا - أي اللّغة - ما هي إلا صورة من صور السلوك الإنساني الذي يمكن ملاحظته.

لقد طبّق بلومفيلد هذه النّظرة على اللّغة "استبعد المعنى من دراسات اللّغة وحصرها بالأصوات والتراكيب الصّرفية والتّحوية فقط، فقسّم الجملة إلى نماذج من حيث

شكلها الخارجي والترتيب الأفقي للتابعي للمفردات فيها، بغض النظر عن المعنى النهائي الذي ينتج عن ذلك"10

إنّ علم اللغة في إطار النظرية السلوكية، اكتفى بدراسة اللغة دراسة سطحية، يؤكد سكينر: "أنّ الاستجابات اللفظية ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمثيرات دون الحاجة إلى تدخل متغيرات، مثل المعنى أو الأفكار، أو القوانين النحوية"11، يتناسى سكينر من خلال مقولته هذه اكتفاءه بالدراسة السطحية لتراكيب الكلام الإنساني، مبعداً المعنى الذي يكشف عن حقيقة العقل البشري وقدرته وهو الهدف الرئيس لدراسة اللغة، وتعتمد النظرية السلوكية، عند تفسيرها في اكتساب اللغة على العلاقة بين المثيرات وما ينتج عنها من استجابات، هذا ما يجعل النمو اللغوي عند الطفل يخضع لما يأتي:

1- نظرية التعلّم والارتباط الشرطي:

الاشتراكية الإجرائية مؤسسها سكينر، الذي يذهب إلى "أنّ اللغة ما هي إلا فصل من فصول التعلّم، وأنّ جميع جوانب التعلّم بما فيها اللغة، خاضعة للتفسير الذي يضعه التعلّم الإجرائي"12 بمعنى أنّ اللغة تنمو لدى الطفل عن طريق المحاولة والخطأ، وتنمو أيضاً إذا وجدت الدّعم والذي يراه سكينر يتم عن طريق المكافأة، وتموت إذا حدث العكس؛ والمكافأة تتمثّل في التأييد من قبل الأسرة أو المجتمع، أي الأفراد المحيطين بالطفل أثناء الممارسة اللغوية، عندما يصدر أصواتاً معينة في بداية نطقه ممّا يمثّل المراحل الأولى من اكتسابه اللغة.

فالسلكيون يؤكّدون أنّ الاستجابات الحركية أو اللفظية التي تصدر عن الإنسان "الطفل" هي الأحقّ بالدراسة؛ لأنّ الارتباط الشرطي في نظرهم هو الأساس الذي يكتسب

على أساسه الإنسان كلّ مقوّمات السلوك، فالمعنى المكتسب لا ينفصل عن الحدث المصاحب لاكتساب اللفظ أو المدلول.

إنّ بلومفيلد يؤكّد على: "ضرورة وجود المثير الخارجي، الذي يستدعي ردّ الفعل الداخلي ومن ثمّ تحدث عملية الكلام"13، ويشرح كيفية اكتساب اللّغة من خلال حالة جيل الجائعة التي ترى تفاحة، ثم ترغب في أكلها، يطلق على هذه العملية المثير العياني، إذا كانت التفاحة قريبة من جيل وقامت بقطفها وأكلها، فهنا تعتبر استجابة عملية تنتهي عند أكل التفاحة، ومن ثمّ لا يحدث اكتساب للغة، في حال عدم وجود كلام في هذا الموقف كاستجابة للمثير العياني، أمّا إذا كانت التفاحة بعيدة المنال عن جيل، فإنّها بالطّبع تكون في حاجة لمن يساعدها في قطفها وبالتالي تلجأ إلى استخدام لغة بما تحويه من أصوات وأبنية وتراكيب، وهذا مثير لغوي ينتج عنه استجابة عملية والمتمثلة في إحضار التفاحة من قبل أخيها جاك، وهي أحداث تمثّل ردود أفعال سلوكية محضة.

وهذا ما جعل مالىنوفسكي وفيرث يعتقدان: "أنّ وصف اللّغة لا يمكن أن يكون كاملاً دون الرّجوع إلى المقام الذي يقال فيه الكلام"14، أمّا بلومفيلد، فقد اتجه إلى القول "أنّ التفسير الآلي للّغة بمصطلحات مثل "المثير والاستجابة" أكثر موضوعية وعملية من الاتجاه العقلي في دراسة اللّغة"15

وقد لاقت هذه النّظرية العديد من الانتقادات ومن ذلك ما وجهه إليها تشومسكي، حيث ضبط نقده في هذه النّقاط الآتية:

- يزعم تشومسكي أنّ النّظرية السلوكية لا تفرّق بين السلوك الإنساني والسلوك الحيواني وبتطبيق هذه النظرية على اللّغة تتحوّل هذه الأخيرة إلى شيء شبيه بالآلة، واللّغة هي المميز الوحيد للإنسان.

- النظرية السلوكية اكتفت بدراسة التراكيب السطحية للكلام الإنساني، مهمة البنية العميقة وتلك هي البنية الحقيقية للكلام، التي بواسطتها يتم الكشف عن خصائص العقل البشري وقدرته، وهو الهدف النهائي لدراسة اللغة الإنسانية.

- للطفل عقل يحتوي على خصائص فطرية تمكنه من تعلّم اللغة من ناحية، وتكوين قواعد لغته من خلال السّماع لا التقليد، يسميها تشومسكي بالكفاءة اللّغوية أو القدرة الإبداعية.

- تهمل النظرية السلوكية الجانب الإبداعي للغة، الذي يعطي الطفل القدرة على تكوين عدد هائل من الجمل التي لم يسمعها أو يفهمها من قبل، كما أهملت التحقق من درجة التنظيم الذي لا يقوم بدور كبير في فهم العبارات فقط وإنما يقوم بتمييزها.

- إنّ النظرية السلوكية تجعل النمو اللّغوي عند الطفل يخضع لمبدأ الارتباط الشرطي والذي يعني أنّ الاستجابات اللّغوية التي يتبعها تحفيز يُكتب لها البقاء والاستمرار، وأمّا الاستجابات اللّغوية التي تموت فهي التي لم تجد تحفيزاً.

- إنّ النظرية السلوكية لا تقدّم تفسيراً كافياً للطريقة التي يكتسب بها الطفل لغته في المجتمع الذي يعيش فيه.

- إنّ السلوكيين يرون أنّ البناء السطحي هو الوحيد الذي يمكن ملاحظته وتفسيره عن طريق المثيرات والاستجابات، والواقع أنّ المثيرات والاستجابات لا تكفي لتغيير فهمنا لمعاني الجمل لأنّ ما يمكن الاستناد عليه في فهم المعنى لا يوجد على مستوى البنية السطحية، وليس لها تمثيل صوتي، ومنه فإنّ نظرية المثير والاستجابة غير كافية لبيان المعنى؛ من حيث إنّها لا تهتم بالجوانب الدّهنية للطفل لاعتمادها على البنية السطحية دون العميقة.

- لا يمكن تفسير عملية اكتساب اللّغة بكلّ جوانبها عن طريق التدعيم، فالتدعيم يكون للأشياء أو الأحداث الموجودة بالفعل في العالم الخارجي، إذ كيف يتأتى لنا تفسير اكتساب الطّفل للمنطوقات التي لم يتلق خلالها تحفيز، ثمّ كيف يمكننا تحفيز العمليات الذّهنية ونحن يصعب علينا إدراكها في ذهن الطّفل؟

- إنّ للطّفل قدرة ذهنية ذاتية تمكنه من اكتساب اللّغة دون تلقي تحفيز من أحد، لأنّه يعيش في مجتمع يفرض عليه اللّغة قهرا.

- إنّ النّظرية السلوكية لا تستطيع تفسير القدرة الخلاقية والإبداعية في عقل الطّفل البشري والتي تعدّ اللّغة أبرز مظاهرها، فاللّغة نظام وكلّ لغة لها نظامها سواء على مستوى الأصوات أم الأبنية أم العبارات أم التراكيب والدلالات، وبهذا حينما يبلغ الطّفل الثالثة أو الرابعة من عمره يمكنه إدراك النّظام اللّغوي.

- إنّ اكتساب اللّغة عند الطفل لا ينبني على ظاهرة الارتباط الشرطي مثل الحيوان، بل يعتمد الطّفل في اكتساب اللّغة على القدرة الذّهنية الإبداعية في إنتاج اللّغة وفهمها.

- يُعدّ التقليد عنصرا مساهما ومساعد في عملية اكتساب اللّغة لدى الطّفل في مراحلها الأولى وهذا ما أهملته النّظرية السلوكية، فلم تقدّم لنا عن ذلك لا شرحا ولا تفسيرا.

ثانيا/ النّظرية الفطرية، أو النّظرية البيولوجية:

عرفت بعدّة تسميات منها؛ النّظرية اللّغوية، والنّظرية العقلية، والنّظرية الفطرية، والنّظرية المعرفية، والنّظرية التوليدية التحويلية، وأسماها نعيم تشومسكي أيضا " القدرة اللّغوية"، أي؛ القدرة التي منحت للإنسان والتي بواسطتها استطاع توليد عدد غير محصور من الكلمات والعبارات والتراكيب اللّغوية.

فالأطفال يولدون وهم يمتلكون جهازا لاكتساب اللغة وتعلّمها، وأطلق عليه: "صندوق اكتساب اللغة" 16 وهو جهاز يمكنهم من اشتقاق أبنية وقواعد مختلفة، فاللغة هنا مجموعة من الأنظمة المعقّدة ذات الطابع النحوي والصّرفي والصّوتي والدّلالي، تعتمد على الاتصال والتواصل فالأطفال يستطيعون النطق بعبارات وبجمل جديدة، يعتبرها الكبار سليمة الصياغة دون أن يسمعوها قبل ذلك.

ويقول تشومسكي عن ذلك أنّ الفرد يولد بملكة فطرية، ذات استعداد لاكتساب وتطوير اللغة، فالطفل بمجرد تلقيه للغة فهو يستعمل مبادئها وقواعدها بشكل تلقائي وهذا ما يمكنه من الكفاية اللغوية، المعروفة بتنظيم قاعدي بالغ التعقيد يؤهله لتعلّم اللغة في مدّة زمنية قصيرة نسبيا.

إنّ مهارات اكتساب اللغة الأساسية في النّظرية الفطرية عند الطفل، وفي مختلف اللّغات، هي مهارة واحدة رغم اختلاف الأجناس واللّغات، وذلك باعتبار أنّ جميع الأشخاص يتمتّعون بخصائص بيولوجية واحدة.

فاللغة عند تشومسكي وأنصاره هي عبارة عن مهارة مفتوحة النّهائيات، حيث يستطيع كلّ طفل إنتاج وفهم جمل لم يسبق له أن استخدمها أو قرأها، هذا لأنّ الطّفل له استعدادات فطرية تسمى جهاز اكتساب اللغة، وهو ملكة داخلية ضمنية تقع تحت سيطرة العقل البشري بحيث تمكّن الطّفل من الأداء الكلامي السليم الموافق لقواعد اللغة التي يكتسبها بغضّ النّظر عن القدرات الذكائية للطّفل، والصفات البيئية والثقافية للمجتمع الذي يعيش فيه¹⁷

ومن أهم المبادئ التي قامت عليها نظرية تشومسكي، نذكر ما يأتي:

الفطرة الدّاتية:

- يولد الطّفل مصحوبا بالقدرة على إنتاج اللّغة، ومزودا بالقواعد الأساسية للغة.

الإنتاج اللّغوي:

- القواعد التي تولد مع الطّفل يستطيع من خلالها إنتاج عدد لا نهائي من الجمل، وبهذا فالقواعد محدّدة لكن الإنتاج غير محدّد.

الإطار البيئي:

- القدرة اللّغوية لا تعتمد على القدرة الفردية فحسب، بل تعتمد على البيئة لما لها من دور مهم في الحصول على قدر كبير من التعلّم¹⁸

القواعد التوليدية التحويلية:

يتحقق فهم الجملة اللّغوية من خلال معرفة مجموعة من الرّوابط والقواعد البنيوية المجرّدة التي تمثّل دور الوساطة بين التمثيل الدلالي والتمثيل الصّوتي، لذلك وجب أن تُدرس التراكيب النّحوية من زاوية شكلية، ويتم هذا التّحليل العام من خلال مكونات ثلاث: المكون الفونولوجي، والمكون التّركيبي، والمكون الدّلالي، فما التّوليد وما التّحويل؟

التّوليد:

ويقصد به " الإنتاج غير المحدود للجمل، انطلاقا من العدد المحصور في كلّ لغة، ثمّ تمييزها - أي الجمل - عمّا هو غير سليم نحويا"¹⁹.

التّحويل:

وهو علاقة تربط بين تمثيلين؛ تمثيل أوّلي مجرّد وهو البنية العميقة، وتمثيل مشتق نهائي هو البنية السّطحية، لذا فمهمة التّحويلات تكمن في تحويل البنى العميقة إلى بنى سطحية.

النّحو التّوليدي:

يقول تشومسكي: "هو نظام من القواعد التي تقدّم وصفا تركيبيا للجمل بطريقة واضحة وأكثر تحديدا، وهذا هو المراد بالنحو التوليدي، وكلّ متكلم تكلم لغة يكون قد استعملها واستبطن نحوا توليديا، وهذا لا يعني أنّه على وعي بالقواعد الباطنية التي قد يكون استعملها أو سيكون على وعي بها... إنّ النحو التوليدي يهتم بما يعرفه المتكلم فعلا وليس ما يمكنه أن يرويّه من معرفته... 20"

الملكة الفطرية:

أي الملكة الفطرية على اكتساب اللّغة، ويتعلّق الأمر بالجانب غير المرئي، أي؛ ما يولد به الإنسان ويزداد مع مرور الزمن بالدربة والاحتكاك بالمجتمع، والتعلّم بطريقة إرادية لتقوية هذه القدرة.

التمثل العقلي:

يقصد به تشومسكي استحضار العقل لقواعد اللّغة أثناء الكلام، وهي قدرة تسمح للمتكلّم باللّغة التمييز بين الجمل النّحوية السليمة والجمل الفاسدة، ويعدّ الاستعداد العقلي جزءا من الملكة اللّسانية، أي؛ جزءا من معرفته الضمنية.

البنية السطحية والبنية العميقة:

ترتبط كلّ من البنية السطحية والبنية العميقة بالقواعد التوليدية التحويلية، وقد وضع تشومسكي هذين المبدأين من أجل تيسير دراسة الجملة المنطوقة والمكتوبة وفهم دلالتها.

الكفاءة والأداء:

كما تقوم النّظرية اللّسانية عند تشومسكي على قاعدتين أساسيتين وهما:

الكفاية اللغوية والأداء اللغوي؛ فالأولى نعني بها القدرة على إنتاج التراكيب، من بينها الجمل التي لم يسبق للفرد سماعها.

أمّا الثانية فتعني استعمال الفرد الفعلي للغته، أي الاستعمال الآلي للغة، أو البنية السطحية للكلام الإنساني، وبهذا فالكفاءة اللغوية والأداء الكلامي وجهان متكاملان من أجل إنجاز الفعل الكلامي، فإذا كانت الأولى معرفة بقواعد اللغة، فإنّ الثانية هي الانعكاس المباشر لها لكن ليس انعكاسا تاما، لكون اللغة تتأثر غالبا بعوامل خارجية، مثل؛ الظروف الاجتماعية والنفسية كالخوف والتعب ودرجة الاهتمام بالموضوع.

وبالرغم من الانتقادات الكثيرة التي وُجّهت إلى تشومسكي ونظريته الفطرية في اكتساب اللغة إلّا أنّ هذه النظرية بقيت ماثرا اهتمام الكثير من الباحثين في مجال تعلّم وتعليمية اللغة كما بقيت مصدرا هاما أفاد منه البحث اللغوي المعاصر بشكل عام، غير أنّ هذا لم يشفع للنظرية الفطرية فقد عيب عليها توغلّها في التجريدية الصورية، حيث كانت تعتمد على المنطق أكثر من الواقع اللغوي، وأنها كانت تعالج أشكال اللغة وقواعدها، ولا تغوص في الجوانب الإستيمولوجية الحقيقية كالذاكرة والإدراك والفكر والعاطفة والمعنى وغيرها من الجوانب التي تتكامل لتكوّن المعنى والوظيفة اللغوية، وتحقيق الهدف من الكلام وهو التواصل.

كما نوقش تشومسكي في عديد المفاهيم ومن تلك المفاهيم؛ مفهوم الكفاءة اللغوية، حيث صرّح بعض التداولين أنّ مفهوم تشومسكي للكفاية مفهوم قاصر لا يتعدى القدرة اللغوية؛ لأنه يفصل اللغة عن مجتمعتها ومحيط استخدامها، وبهذا تبقى نظرية تشومسكي تتشبّه بالجانب التقني الصوري بعيدة كلّ البعد عن الجوانب التفاعلية التواصلية للغة، وهذا فيض من غيظ حيث إنّ النظرية التوليدية التحويلية وما جاءت به من فكرة القواعد

الكلية وغيرها لازالت وستبقى تواجه العديد من الانتقادات، خاصة من قبل الموظفين وغيرهم، مما سيحدّ أو يعرقل تطور هذه النظرية.

الكفاءة التواصلية:

وجدير بنا أن نشير هنا أنّ عديد الدّارسين اهتموا بمبدأ الكفاءة اللّغوية الذي أشار إليه تشومسكي اهتماما كبيرا، وفي مقدّمة هؤلاء أنصار نظرية الكفاءة التواصلية²¹، حيث جعلوا من هذا المبدأ جسر عبور إلى اكتساب واستعمال اللّغة مهما كانت هذه اللّغة، فقد أكّدوا أنّ المتعلّمين يمكنهم إنماء وتطوير اكتسابهم اللّغة وذلك بالتزامهم بقواعد وعناصر الكفاءة التواصلية والتي تتحقق عبر بعض النّقاط التي قد ضبطوها في أبحاثهم، وهي على النّحو الآتي:

- كثرة استخدام اللّغة عن طريق المشافهة المباشرة.
- التّحكم في السّياق اللّغوي.
- الدّأب على تصحيح الأخطاء والأغلاط اللّغوية في كلّ مستوياتها.
- استيعاب الفروقات الثّقافية والاجتماعية الدّقيقة بين جماعة المتكلّمين.
- العمل على تنشيط وتقوية التفاعل اللّغوي، بما يحقق التّعلم التفاعلي.
- تعزيز مهارات السّماع والتّحدث وغيرهما؛ فأما الأولى، أي؛ مهارة السّماع، فقد عرّفها أحمد مدكور بقوله: "هو استقبال الأذن لذبذبات صوتية من مصدر معيّن دون إعارتها انتباهها مقصودا"²²، وهي مهارة تتحقّق مثلا من خلال:
- استخدام التسجيلات الصوتية للمحادثات الطّبيعية.
- استعمال بعض سيناريوهات الحياة الواقعية المسجلة.
- العمل على الدّمج اليومي المستمر لبعض الوسائط التّعليمية المتعدّدة.

- الإكثار من تمارين الاستماع الموجهة.

وأما مهارة التحدّث، فقد عرّفها خالد حسين بقوله: " عبارة عن مناقشة حرّة تلقائية تحدث بين فردين أو عدّة أفراد يتمّ فيها التعبير عمّا في النّفس من خواطر ومشاعر وأحاسيس، وتبادل الآراء والخبرات والمعلومات والأفكار بطريقة منظّمة وحيوية "23 وهي مهارة تتحقّق مثلاً من خلال:

- الانغماس البيئيّ ويتحقّق من خلال التحدّث باللّغة، إذ يتعرّض المتعلمون لمحادثات حقيقية ممّا يساعدهم على تطوير المهارات اللّغوية لديهم، بتوسيع مفرداتهم واكتساب الثّقة في استخدام اللّغة.

- لعب الأدوار وهو أسلوب فعّال يتيح للمتعلّمين محاكاة الحياة الواقعية وممارسة مهارات التحدّث في بيئة خاضعة للرقابة.

- المواد الأصلية يؤدّي دمج المواد الأصلية في تجارب الانغماس وأنشطة لعب الأدوار إلى تطوير كفاءة التحدّث، وتتضمن المواد الأصلية موارد من الحياة الواقعية مثل الصّحف والمجلّات ومقاطع الفيديو، وغير ذلك.

وأما مهارة القراءة، فقد عرّفها سميح أبو مغلي بقوله: " إدراك الرّموز المكتوبة والنّطق بها، ثمّ استيعابها وترجمتها إلى أفكار، وفهم المادّة المقروءة، ثمّ التفاعل مع ما يقرأ وأخيرا الاستجابة لما تمثّله هذه الرّموز "24، وهي مهارة تتحقّق مثلاً من خلال:

- المطالعة، العكوف على كثرة وقراءة ومطالعة الكتب بكلّ أنواعها؛ التّعليمية، العلمية، ...

- أصالة النصوص؛ وتتعلق بتوفير نصوص أصلية للمتعلمين، يمكنهم من خلالها استيعاب واكتساب اللغة، وغالبا ما تكون تلك النصوص متوفرة في بعض الكتب والمقالات الصحفية أو القصص القصيرة، وحتى منشورات وسائل التواصل، وغير ذلك.

- الوعي الثقافي؛ ويتحقق من خلال دمج النصوص التي تعكس قيم الثقافة المستهدفة وتقاليدها ووجهات نظرها، وذلك حتى يتمكن المتعلم من توسيع تطلعاته الفكرية.

- توسيع المفردات؛ ويتحقق ذلك من خلال إطلاع المتعلم على قائمة المفردات في سياقات معينة وذلك حتى يسهل عليه استخدامها بشكل سليم، وبالتالي الاحتفاظ بها وضمان عدم تضييعها، الأمر الذي يسهم كثيرا في فهم المفردة فهما جيدا ويسمح له ذلك بتوظيفها في مقامها المناسب.

- استراتيجيات الفهم؛ ونعني بها مهارات التنبؤ والاستدلال والتلخيص، وغيرها، وهي استراتيجيات تسهم في فهم المتعلم للنص فهما جيدا، مما يمكنه من ربطه بواقعه الخارجي وسياقه العام، ومعارفه القبلية.

- التفكير النقدي؛ إنَّ قراءة المواد السياقية التي تشجّع المتعلمين على التفكير النقدي وتحليل المعلومات ومن خلال التعامل مع النصوص التي تقدّم وجهات نظر مختلفة أو موضوعية مثيرة للجدل، يطور المتعلمون قدرتهم على تقييم الحجج وتكوين الآراء والمشاركة في مناقشات هادفة.

وأما مهارة الكتابة، فقد عرّفها محمد مصطفى بقوله: " مهارة إنسانية تترجم ما بداخل الإنسان من أفكار وإحساسات مجردة إلى خطاب مكتوب، وبتعبير آخر: هي أداة

للتعبير لما يجول في العقل والنفس، وتتخذ رموزا نسميها حروفا تختلف من جماعة إلى جماعة "25 وهي مهارة تتحقق كما يأتي:

- الممارسة الدؤوبة: الإكثار من الكتابة على الورق، وتحويل الموضوعات بكل أنواعها إلى نصوص مكتوبة.

بناء الثقة:

ويتحقق بتقسيم الكتابة إلى خطوات يمكن التحكم فيها، حيث يشعر المتعلمون براحة أكبر في التعبير عن أفكارهم على الورق، مما يساهم في تطوير قدراتهم في اكتساب اللغة.

تطوير القواعد:

إنّ تطوير القواعد يتم عن طريق إطلاع المتعلمين على بعض التمارين التركيبية التطبيقية الموجهة، حيث يمكنهم أن يتعلموا بعض القواعد الأصيلة للغة المستوعبة، كما يسهل عليهم فهم طبيعة اللغة وكيفية بناء جملها وعباراتها وفهم العلاقات التي تربط بينها.

التحليل النقدي:

الكتابة والتحليل الكتابي يساهم كثيرا في خلق النزعة النقدية لدى المتعلم، وبها يصير قادرا على التحليل والتعليل والتصويب والتصحيح والنقد والمقارنة، وكلها مهارات تفيد المتعلم كثيرا في فهم واستيعاب اللغة بطريقة جيّدة.

تشجيع الإبداع:

إنّ تجربة استعمال الكتابة تشجّع المتعلمين على الخلق والإبداع في مجال اللغة حيث، تنمي فيهم هذه الموهبة، وتقوي قدراتهم الذاتية في استيعابها.

التعليقات والمراجعة:

إنّ التعليقات والمراجعات التي يوجهها الأساتذة والمعلّمون والمختصون في مجال اللغة لبعض الكتابات، تسهم كثيرا في تقويم اللغة وتتيح للمتعلمين فرصة تحسين تلك الكتابات، وبالتالي يساعدهم ذلك على التحصيل اللغوي، ممّا يكون لديهم ثروة لغوية على مستوى المفردات والتركيب والقواعد.

النظرية التفاعلية أو التوفيقية:

تحاول النظرية التفاعلية التوفيقية الدمج بين كلّ نظريات اكتساب اللغة، كما تحاول الاستفادة من كلّ الأفكار والوسائل والطرق والتجارب والنتائج التي توصّلت إليها كلّ تلك النظريات خاصّة النظرية السلوكية والنظرية الفطرية.

كما أنّ العوامل التي تؤثر في قدرة الطفل على اكتساب اللغة وتعلّمها هي عوامل جد متداخلة لا يمكن الفصل بينها، بل إنّ كلّ من العوامل الثقافية والاجتماعية والبيولوجية والمعرفية تتشكّل في قالب واحد وتسهم في تشكيل اللغة الأولى عند الطفل.

وتقسّم هذه النظرية عوامل اكتساب اللغة إلى نوعين؛ داخلية ذاتية، وخارجية مجتمعية؛ فالداخلية متعلّقة بالتكوين العصبي النفسي والجسدي، وكلّ ما يتعلّق بالذكاء والعاهات البصرية والسمعية والصوتية وجنس الطفل ذكرا كان أم أنثى.

وأما العوامل الخارجية، فتتعلّق بالنشأة الأسرية والاجتماعية للطفل، فالطفل يتعلّم اللغة باعتبارها وسيلة من وسائل التواصل الجمعي، للحصول على نتائج الثقافة المجتمعية، والدّين والسلوك، والفكر للأفراد الدّين يعيش معهم.

كما أنّ ثمة بعض العوامل الخارجية المساعدة لعملية اكتساب اللغة، كالبيئة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي، والإطار الثقافي، بالإضافة إلى ما اصطلح على تسميته بالبيئة اللغوية كأن يكون والدا الطفل أستاذين أو معلّمين، أو منتسبين إلى سلك التعليم،

فإنَّ الطَّفل في هذه الحال يسهل عليه اكتساب اللِّغة إذا ما قورن بطفل آخر يفتقد لهذه البيئَة اللِّغوية.

مراحل اكتساب اللغة:

أولى مراحل اكتساب اللغة هي "سماع وإصدار الأصوات" وخلالها يستوعب الرضع الأصوات التي يسمعونها في أول شهور حياتهم من الوالدين والمقرّين، واستجابة لهذه الأصوات يبدأ الرضع في توجيه وتحريك رؤوسهم وأيديهم صوبها، بعد ذلك يبدأ الصغار في إصدار أنماط مختلفة من الصيحات "الصراخ، البكاء، الضحكات" يستخدمونها للتعبير عن حاجات مختلفة كما يصبحون قادرين على إنتاج تسلسل من الأصوات المتنوعة. وبحلول الشهر الرابع من العمر، يطور الرضع القدرة على نطق الأصوات الصامتة الطبقيّة ويبدؤون في إنتاج أصوات أحادية المقطع مثل "ما وبا"، فيما يعرف بمرحلة الهديل. تبدأ المرحلة الثالثة المعروفة بالمنغاة بين عمر الستة والثمانية أشهر، وخلالها يصبح الصغار قادرين على إنتاج عبارات متعددة المقاطع تضم أصواتاً صامتة ومتحركة، مثل "ما، ما، ما وبا، با با"، بعدها بوقت قصير يتعلمون نطق أصوات صامتة جديدة وإنتاج مقاطع أكثر تعقيداً، مثل "ماما، وبابا ودادا، ونانا"، وعلى الرغم من أن هذه الأصوات قد لا يكون لها معنى، فإن هذه "اللغة المبكرة"، تمثّل الطفل ببعض الخبرة حول الدور الاجتماعي للحديث.

مرحلة المفردات وتكون بين عمر السنة والنصف، يستخدم الأطفال في هذه المرحلة بعض المفردات، لطلب الأشياء أو التعبير عن مشاعرهم.

مرحلة استعمال الجمل: وفي عمر العشرين شهراً، يتعدى المخزون اللغوي للأطفال الخمسين كلمة أو أكثر، حيث يبدأون في استخدام مجموعة متنوعة من العبارات المتكونة

من كلمتين مثل: "أكل، أشرب"، ويعتمد تفسير الراشدين للكلمات المفردة أو العبارات المتكونة من كلمتين على سياق الحديث، على سبيل المثال، إذا قال الطفل "لعبة أو عبة"، فإنه إما يسمي الشيء الموضوع أمامه، وإما يقول: "أنا أريد لعبة"، كذلك قد تعني عبارة "عصير ماما" إما "أمي تشرب العصير"، وإما "هذا عصير أمي".

مرحلة فهم اللغة: في عمر السنتين، يستطيع الأطفال نطق ما يقرب من ثلاثمائة كلمة وفهم خمسة أضعاف هذا العدد.

مرحلة الكلام المقتطفات اللغوية: بعد ذلك تأتي مرحلة أخرى هي مرحلة الكلام التلغرافي وتكون في عمر السنتين ونصف السنة، تظهر في هذه المرحلة قدرات تركيبية متنوعة، حيث يطور الطفل مهارة تركيب الجمل، ومن ثم يبدأ في بناء عبارات تتكون من كلمات ذات دلالة "الأسماء والأفعال والصفات، وغيرها"، ولا تضم الكلمات الوظيفية "أدوات التعريف وحروف الجر، وغيرها" من أمثلة "الكلام التلغرافي": "بسبس يلعب" و"بابا راح".

مرحلة توسع المخزون اللغوي: في عمر الثلاث سنوات، تتوسع وتتطور حصيلة المفردات لتضم المئات، وتنمو القدرات النحوية والتركيبية، ويصبح النطق أقرب لنطق الكبار، خاصة المقربين منهم.

ولا شك في أن ملكة اكتساب اللغة لدى البشر هبة ونعمة عظيمة من الخالق؛ فهي أكثر أنظمة التواصل تعقيداً وتداخلاً، إذ تعتمد على آليات ذهنية حيوية فائقة التعقيد بما يحصل فيها من تداخل فطري، ذهني، نفسي، اجتماعي وثقافي، فمسألة اكتساب اللغة لطالما حيرت المفكرين وعلماء اللغة وكانت مدار دراساتهم وموضوع أبحاثهم، الأمر الذي أدى

إلى ظهور العديد من الآراء والأفكار والكثير من النظريات التي حاولت أن تبحث في هذا المجال.

وتُعدّ النظرية التّوفيقية، من أهم تلك النظريات، حيث رأينا أنّها تستدعي كلّ العناصر السلوكية والدّهنية والنفسية والاجتماعية والثقافية، وتطلبُ حضورها عند دراستها لعملية اكتساب اللّغة وتعلّمها لدى الطّفل، فهي بذلك لا تقصي النظريات الأخرى التي جاءت في هذا الصّدّد، بل تتكامل معها وتتفق في عديد الملاحظات والآراء، ومهما يكن من أمر، فإنّ اللّغة ملكة فطرية يعمل الإنسان على تطويرها منذ ولادته مروراً بطفولته ووصولاً إلى تقدّمه في السّن، مستفيداً من كلّ العناصر المحيطة به سواء الذاتية أو النفسية أو العائلية أو المجتمعية معتمداً في ذلك على بعض المهارات، كمهارة السّماع ومهارة التّحدث ومهارة القراءة ومهارة الكتابة.

الهوامش

- 1 محمد الأوراعي: اللسانيات النسبية وتعليم اللّغة العربية، دار الأمان الرّباط، ط1، 2010م، ص: 286.
- 2 عبد التّواب رمضان: المدخل إلى علم اللّغة، مكتبة الخانجي، مصر القاهرة، ط1، 1982م، ص: 123.
- Lightbown, Spade N 2006 How languages are learned, Oxford university, 3 press
- 4 مجلّة كوكب العلم: عدد خريف 2017 م، مقال بعنوان: العلوم السلوكية والصّحة العقلية، هند فتحي، 18 ديسمبر 2018م.
- 5 الرّازي: مختار الصّحاح، مادة "ك س ب"، تعليق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط4، 1990م، ص: 362.
- 6 مجمّع اللّغة العربية، معجم علم النّفس والتّربية: الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية، جمهورية مصر العربية القاهرة، دط، 1984م، ج1، ص: 6.
- 7 علاء الجبالي: لغة الطّفل العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، 2003م، ص: 55.
- 8 نايف خرما: أضواء على الدّراسات اللّغوية المعاصرة، مجلّة عالم المعرفة، الكويت، العدد 9، سبتمبر 1987م، ص: 167.
- 9 محمد حسن عبد العزيز: مدخل إلى علم اللّغة، مكتبة الشّباب مصر القاهرة، 1992م، ص: 106.

- 10 نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، العدد 9، الكويت، 1978م، ص: 193.
- 11 حودث جرين: علم اللغة النفسي " تشومسكي وعلم النفس " تر: مصطفى التوني، مكتبة الأسرة، مصر القاهرة، 1993م ص: 22.
- 12 نوال محمد عطية: علم النفس اللغوي، المكتبة الأكاديمية، مصر القاهرة، ط3، 1995م، ص: 120.
- 13 حسام البهناوي: أبحاث علم اللغة، دار الهاني للطباعة والنشر، مصر القاهرة، 1991م، ص: 113.
- 14 محمد حسن عبد العزيز: مدخل إلى علم اللغة، مكتبة الشباب، مصر القاهرة، 1992م، ص: 138.
- 15 جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية، تر: حلمي خليل، دار المعرفة، مصر الإسكندرية، 1995م، ص: 208.
- Chomsky, N. 2006, language combridge, combridge University press, p10716
- 17 ينظر، حسام البهناوي: لغة الطفل في ضوء مناهج البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية مصر القاهرة، 1993م، ص: 100.
- 18 ينظر، صالح نصيرات: طرق تدريس العربية، ص: 24.
- 19 ميشال زكريا: الألسنة التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية " النظرية الألسنية"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ط1، 1986، ص: 137.
- 20 شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2004م، ص: 40.
- 21 الكفاءة التواصلية: تحقيق الطلاقة من خلال الطريقة المباشرة. نظر في 30/11/2023، الساعة: 22:10
- <https://faster.com> نظر في 30/11/2023، الساعة: 22:10
- 22 علي أحمد مذكور: طرق تدريس اللغة العربية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن عمان، ط1، 2007م، ص: 181.
- 23 خالد حسين أبو عمشة وآخرون: التحليل التدريبي في تدريس مهارات اللغة العربية وعناصرها للناطقين بغيرها، النظرية والتطبيق، دار وجوه النشر والتوزيع، الرياض السعودية، ط1، 2017م، ص: 207.
- 24 سميح أبو مغلي: مدخل إلى تدريس مهارات اللغة العربية، دار البداية ناشرون وموزعون، الأردن عمان، ط1، 2010م، ص: 26.
- 25 محمد مصطفى بن الحاج: مذكرة في الكتابة العربية، مركز البحوث التربوية والتعليمية، طرابلس، ليبيا، 1998م، ص: 82.